الوصف في الشعر الجاهلي

تعريف الوصف في الشعر الجاهلي:

بداية فإن الوصف عبارة عن تصوير الظواهر الطبيعية بصور واضحة الملامح ، والتقاسيم ، وإضفاء الالوان على الآثار الإنسانية من أجل إبراز الجمال ، كما أنه يعمل على تحليل المشاعر الإنسانية تحليلا عميقا ، فضلا عن استخدام العناصر التي تحتاج الذوق الفني ، وإحساس مرهف ، وذوق سليم.

والوصف يعتبر عمود الشعر ، حيث أن أي غرض من أغراض الشعر يكون عبارة وصف ، فتدخل فنون الشعر كافة تحت عنوان الوصف ، فمثلا:

المدح : هو وصف محاسن الشخص ، ونبله.

الهجاء : وهو وصف سوءات المهجو ، وإبراز عيوبه ونقائضه.

النسيب : وهو وصف النساء ، والحنين إليهن ، والتوقف إلى رؤيتهن ، ولقائهن.

الرثاء : وهو وصف محاسن المتوفي ، وتصويره اثاره.

ولقد كان الوصف من سماة الشعر الجاهلي البارزة في الشعر ، حيث أنه كان أقوى فنون الشعر ، فامتازوا في وصف الطبيعة ، إما الساكنة ، او المتحركة.
وكان الشعراء الجاهلين يبدأون قصائدهم بالوصف ، وإن كان أمر تافه لا يذكر ، وكان الدافع لهم هو شغفهم بالشعر ، فمثلا يقول طرفة ابن العبد في رمي السن المخلوع تجاه الشمس من أجل استبداله:

بدلته الشمس من منبتها * بردا ابيض مصقول الاشر

فهذا المثال ، وغيره الكثير ليس من وصف الطبيعة ، وانما من وصف العادات ، فالوصف في الشعر في العصر الجاهلي لم يقف عند حد ، فلقد وصفوا الطبيعة الداخلية ، والنفس المتغيرة ، إذ يقول علقمة الفحل:

فإن تسألوني بالنساء فإنني * بصير بأحوال النساء طبيب

اذا شاب راس المرء أو قل * ماله فليس له في ودهن نصيب

يردن ثراء المرء حيث علمنه * وشرح الشباب عندهن عجيب

ومن هنا يمكننا القول ، أن الوصف في العصر الجاهلي كان من أجل الوصف ، مثل أن الفن من أجل الفن ، فلقد ادخلوا الوصف في كل قصائدهم ، ولكن ليست بطريقة بعيدة عن معنى القصيدة.

البيئة في العصر الجاهلي:

إنّ الحديث عن الوصف في الشعر الجاهلي يستلزم الحديث عن البيئة في ذلك العصر، فما الوصف إلا إسقاط لما يعيشه الشاعر في البيئة على بعض الأشياء والمشاعر ليجعلها أكثر وضوحًا، وأقرب للفهم؛ إذ إن الشاعر يلجأ إلى الوصف لتقريب الصورة إلى الأذهان ولمنح الشعر نوعًا من الجمالية أيضًا، فحين يصف الشاعر السحاب في العصر الجاهلي فإنه قد يستعين بالإبل، أو الجبال لتقريب الصورة التي يريد نقلها؛ أي يستعين بالعناصر القريبة منه والموجودة في بيئته، وسنعرض في هذا المقال تفصيلًا للبيئة في العصر الجاهلي مع عرضٍ لبعض نماذج الوصف في الشعر الجاهلي.

للبيئة العربية تأثير كبير على الأدب عمومًا، وعلى الوصف خصوصًا، كيف لا والوصف يستمد معانيه من البيئة، ويأخذ منها أفكاره وتشبيهاته، وعند الحديث عن البيئة في العصر الجاهلي فإن السفر والترحال والتنقل هو أول ما يخطر في البال، فقد كان العرب في الجزيرة دائمي البحث عن الماء والطعام لهم ولدوابهم، لذلك فإن إقامتهم في أي مكان مرتبطة بوجودهما، وقد بدا تأثير ذلك واضحًا على الشعر الجاهلي.

كما انعكس ذلك الأمر على الوضع المادي في ذاك العصر؛ فقد كان الفقر منتشرًا، مما سهّل من نشوب الحروب؛ فلا يوجد لدى الفرد في تلك البيئة شيئًا ليخسره، لذلك فإنه كان مندفعًا نحو الحرب التي أكثر من تناولها في شعره، ووصف كل ما يتعلق بها من أسلحةٍ وعتاد، كما استخدم الشعر لصالحه في الحرب، فكان الفرد ينتصر لقبيلته على القبيلة.

وبذلك تكون البيئة قد أثّرت على الشعر الجاهلي وتوظيفه للوصف أيما تأثير؛ فقد وصف الشاعر الجاهلي الصحراء، وما فيها من ظباء وذئاب، كما وصف الحضر، وما فيه من نباتات وأزهار، فلم يترك الشاعر شيئًا في بيئته إلا وصفه واستخدمه في الوصف، فكانت جملة "الشعر ديوان العرب" حقيقة مثبتة في الشعر الجاهلي.

خصائص الوصف في الشعر الجاهلي:

الوصف في الشعر الجاهلي يمثل جزءًا أساسيًا من أشكال الشعر التي تعبر عن مختلف الجوانب الطبيعية والاجتماعية والثقافية لتلك الفترة. يمكن تحديد عدة خصائص للوصف في الشعر الجاهلي، ومن هذه الخصائص:

الوصف الطبيعي:** كان الشعر الجاهلي يصف الطبيعة بتفاصيل دقيقة وجميلة، مثل وصف الصحراء، الجبال، الأشجار، والحيوانات. كان الشاعر يستخدم الوصف الطبيعي للتعبير عن جمال الطبيعة ولإبراز مشاعره وأفكاره **.

الوصف الجسدي:** كان الشعراء يصفون الأشخاص والشخصيات بصورة دقيقة، مثل الجمال البدني، اللون، القوام، وحتى الملامح الداخلية والخارجية **.

الوصف الاجتماعي والقبلي:** كان الشعر الجاهلي يصف القبائل والمجتمعات والعادات والتقاليد وكيفية الحياة في ذلك الوقت **.

الوصف الروحي والعاطفي:** كانت الشعراء يصفون المشاعر الداخلية والعواطف مثل الحب، الشوق، الأسى، والفرح بطريقة جميلة وعاطفية**.

الوصف الوطني:** يظهر الشاعر في بعض الأحيان وصفًا للوطن والمناظر الطبيعية المميزة له، مع التركيز على الروح الوطنية والانتماء**.

استخدام الرموز والمجازات:** كان الشعراء يستخدمون الرموز والمجازات بشكل واسع في الوصف للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم بطريقة جمالية وملهمة**.

التركيز على التفاصيل:** يتميز الوصف في الشعر الجاهلي بالتركيز الكبير على التفاصيل الدقيقة لإيصال الصورة بشكل أفضل وأكثر وضوحًا**.

هذه الخصائص تمثل بعض الجوانب التي كانت شائعة في الشعر الجاهلي والتي ساهمت في إثراءه وإبراز مختلف الجوانب الحياتية والثقافية والطبيعية خلال تلك الفترة.

أسباب انتشار الوصف في الشعر الجاهلي:

انتشار الوصف في الشعر الجاهلي يعود إلى عدة أسباب تتعلق بالسياق الاجتماعي والثقافي لتلك الفترة والطبيعة الشعرية التي كانت متميزة في ذلك الزمان. من الأسباب الرئيسية:

ارتباط الشعر بالطبيعة والبيئة: كان الشعراء في العصر الجاهلي محاطين بالطبيعة والمناظر الطبيعية، وكانت الحياة اليومية ترتبط بالبيئة الصحراوية والجبلية والبحرية. لذا، كانوا يستخدمون الوصف للتعبير عن تفاصيل هذه البيئة وجمالها.

ثقافة الشعر والشعراء: كان الشعر جزءًا أساسيًا من الحياة الاجتماعية والثقافية في تلك الفترة. كانت المسابقات الشعرية والفخر بالشعراء وأساليبهم منتشرة، والوصف كان أحد الأدوات الأساسية التي يستخدمها الشاعر لإبراز مهاراته وتميزه الشعري.

تعزيز الشخصيات والمشاهد: كان الوصف يساعد في تقديم الشخصيات والمواقف بشكل واضح وجميل، مما يجعل القصيدة أو النص الشعري أكثر جاذبية وواقعية.

التعبير عن المشاعر والأفكار: كان الوصف وسيلة للتعبير عن المشاعر والأفكار الداخلية بشكل ملموس وجميل، سواء كان ذلك في الوصف الطبيعي أو الوصف الجسدي.

التقاليد الشعرية والثقافية: كانت هناك تقاليد وقيم شعرية متجذرة في المجتمعات الجاهلية، وكان الوصف جزءًا من هذه التقاليد الشعرية التي كانت تحظى بقبول واحترام واسعين.

تأثير الفطرة والشعور بالترابط مع الطبيعة: الشعراء كانوا يعيشون في بيئة طبيعية صحراوية وشعروا بالارتباط العميق مع الطبيعة، مما دفعهم لاستخدام الوصف كوسيلة للتعبير عن هذه العلاقة الوثيقة.

تمثل هذه العوامل مجموعة من الأسباب التي ساهمت في انتشار واستخدام الوصف بشكل واسع في الشعر الجاهلي، والذي أضاف جمالًا وغنى للشعر في تلك الفترة.

نماذج من الوصف في الشعر الجاهلي:

الشعر الجاهلي هو فترة من الشعر العربي القديم، وهو يتميز بالوصف الجميل والدقيق للمشاهد الطبيعية والأشياء المحيطة بالشاعر. إليك بعض الأمثلة على الوصف في الشعر الجاهلي:

1- وصف الصحراء:

"وَلَا حِجَارَةٌ فِي الأَرْضِ قَطَعَةُ ** وَلَا شَجَرٌ غَيْرُ ثِمَارِهَا تُرْضِي"

"وَعَلَى العَالَمِينَ مِنْ حَيْثُ مَتَى ** أَتَى الشَّرْقُ بِهِ صَوْتَ النَّعَامِ وَالإِغْلِي

هذا المقطع من الشعر يصف الصحراء بأنها خالية من الحجارة والأشجار، ويُظهر جمال الطبيعة بصوت النعام والإغلي.

2- وصف الحبيبة:

"وَإِذَا مَا انْطَلَقَتْ أَرْبَاعُهَا ** مَا لَأُرْبَاعِهَا مِنَ البُيُوتِ ذُو حَمَارِ"

"وَكَأَنَّهَا الأَجْفَانُ السَّوْدَ ** يَنْتَقِيهَا الأَمْرُ الرَّشِيدُ منَ الأَمَرِ

يُصوّر الشاعر حبيبته بوصف دقيق يشبه جمال الأجفان السوداء ويعبر عن جمالها وأناقتها.

3- وصف الفرسان:

"أَذَاقُ السَّوْدَاءَ لَمْ يُعْرَفْ ** فَخْرٌ إِلَيْهَا غَيْرُ الْفَحْلِ المَرْبُوطِ"

"فَرَسٌ مَعْلُومٌ مَنْ سِرِّهِ ** لَدَى الطَّرَازِينَ وَفَوْقَ السَّفَرِ

هذا المثال يصف فخر وجودة الفحول المربوطة والفرس المعلومة بسرها وأناقتها أثناء السفر.

تُظهر هذه الأمثلة كيفية استخدام الشعراء الجاهليين للوصف الدقيق والجميل في شعرهم لوصف الطبيعة والأشخاص والمواقف المختلفة.

الوصف في الشعر الجاهلي كان عنصرًا بارزًا يعكس دقة الملاحظة وجمال الوصف اللفظي. كان الشعراء الجاهليون يمتلكون موهبة فائقة في وصف الطبيعة، الأشخاص، والمشاهد بطريقة تجعل القارئ أو السامع يتخيل بسهولة ما يُصف له.

في شعرهم، استخدموا الوصف ليس فقط للتعبير عن الجمال الطبيعي بل أيضًا لتوصيل العواطف والمشاعر. كانوا يصفون الصحراء بصورة جافة وخالية من الحياة، ويصفون الأحباب بجمال الوجوه والأجساد، ويصفون المعارك بشكل ملموس وشديد الحماسة.

تمثل الخلاصة في أن الوصف في الشعر الجاهلي لم يكن مجرد وصف سطحي، بل كان يحمل طاقة فنية عميقة، يمزج بين الحقائق الواقعية والمشاعر الإنسانية، مما يجعله جزءًا أساسيًا من التعبير الشعري في تلك الفترة.